العلم النافع

إعداد

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي

العلم النافع

إعداد

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي

يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لجمعـــــهِ * عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعـــــــذرُ
واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المـــدَى * في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ
فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لـــــــهَا * بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجـــــدرُ
ومنَ المحالِ بأن نرَى أحدًا حوَى * كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعـــــذِّرُ[1]

(1) عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد".

{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}

[المجادلة: 11] .

مقدِّمةٌ

إنَّ الحمدَ للهِ

نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيِّئاتِ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضللْ فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَّاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَّنِسَاءً وَّاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُون بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا﴾[النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُم وَيَغْفِرْلَكُم ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: 70 – 71].

أمَّا بعدُ: "فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ تعالَى، وخيرُ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ محدثاتهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلَّ ضلالةٍ فِي النَّارِ[1].

(1) أما بعدُ فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وإنَّ أفضلَ الهدي هديُ محمدٍ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ أتتْكم الساعةُ بغتةً – بُعِثتُ أنا والساعةُ هكذا – صبحَتْكم الساعةُ ومستْكم – أنا أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه – من ترك مالًا فلأهلِه – ومن ترك دَيْنا أو ضَياعًا فإليَّ وعليَّ – وأنا وليُّ المؤمنين.
الراوي: جابر بن عبدالله، المصدر: صحيح الجامع، الرقم: 1353.
التخريج: أخرجه النسائي في (المجتبى) (3/ 188)، وأحمد (3/ 310) باختلاف يسير.

وبعد:

فقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى فِي كتابهِ العزيزِ العلمَ النَّافعَ وأهلهُ وأثنَى عليهمْ، وذكرَ العلمَ الذِي لَا ينفعُ وتوعَّدَ أهلهُ، فقالَ سبحانهُ وتعالَى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ}[آل عمران: 18].

قالَ ابنُ كثيرٍ: ثمَّ قرنَ شهادةَ ملائكتهِ وأولِي العلمِ بشهادتهِ فقالَ: (شهدَ اللهُ أنَّهُ لَا إلهَ إلَّا هوَ والملائكةُ وأولُو العلمِ) وهذهِ خصوصيَّةٌ عظيمةٌ للعلماءِ فِي هذَا المقامِ[1].

وقالَ تعالَى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا}[الإسراء: 107 – 109].

وقالَ سبحانهُ: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}[العنكبوت: 49].

وقالَ تعالَى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة: 11].

---

(1) تفسير ابن كثير.

وقالَ جلَّ جلالهُ: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[فاطر: 28].

قالَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ تعالَى:

إنَّمَا يخشاهُ حقَّ خشيتهِ العلماءُ العارفونَ بهِ، لأنَّهُ كلَّمَا كانتْ المعرفةُ للعظيمِ القديرِ أتمُّ والعلمُ بهِ أكملُ، كانتْ الخشيةُ لهُ أعظمُ وأكثرُ[1].

وذكرَ سبحانهُ تعالَى العلمَ الذِي لَا ينفعُ فقالَ: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[البقرة: 102].

وفي هذا المبحث سنتعرَّف على معنى العلم النافع، ومعاني مرادفاته وأضداده، وأقسامه، وما هيَّة العلم النَّافع، وفضله، ومنعته، وحكمه وغير ذلك ممَّا سنتناوله في هذا المبحث، وبالله نستعين وعليه ونتوكل ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم.

وكتب

الدكتور عصام الدين إبراهيم النقيلي

---

(1) تفسير ابن كثير.

{تعريف العلم}

المعنَى اللُّغوِي للعلمِ:

أصلُ مادَّةِ (علم) تدلُّ علَى أثرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ بهِ عنْ غيرهِ[1]، فهوَ منَ العلامةِ والأثرِ[2]، والعلمُ بالشَّيءِ: المعرفةُ، يقالُ: علمَ الشَّيءَ يعلمهُ علمًا، أيْ: عرفهُ، ورجلٌ علَّامةٌ، أي: كثيرُ العلمِ، والتَّاءُ للمبالغةِ، واسْتَعْلَمَهُ الخَبَرُ فأعْلَمَهُ إيَّاهُ[3].

المعنَى الاصطلاحِي للعلمِ:

عرَّفهُ الجرجانِي بأنَّهُ: الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ[4].

وعرَّفهُ المناوِي بأنَّهُ: الاعتقادُ الجازمُ الثَّابتُ المطابقُ للواقعِ؛ إذْ هوَ صفةٌ توجبُ تمييزًا لَا يحتملُ النَّقيضَ، أوْ هوَ حصولُ صورةِ الشَّيءِ فِي العقلِ، والأوَّلُ أخصُّ[5].

وقيلَ: إدراكُ الشَّيءِ علَى مَا هوَ بهِ[6].

وقولهمْ: "الاعتقادُ الجازمُ الثَّابتُ المطابقُ للواقعِ"، يقتضِي انطباعًا فِي العقلِ بمَا يكونُ لهُ أثرٌ وعلامةٌ، كمَا أنَّ دلالةَ أنَّهُ "صفةٌ توجبُ تمييزًا لَا يحتملُ النَّقيضَ"، لبيانِ أنَّ كلَّ علمٍ ينضبطُ بدقَّةٍ عاليةٍ يتميَّزُ منْ خلالهَا عنْ غيرهِ منَ العلومِ والفنونِ، و"حصولُ صورةِ الشَّيءِ فِي العقلِ" تتطوَّرُ إلَى اعتقادٍ قلبيٍّ ثابتٍ جازمٍ، يطابقُ ذلكَ الواقعَ الذِي عليهِ ذلكَ الأمرُ، واللهُ تعالَى أعلمُ[7].

---

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/١٠٩.

(2) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/٨٣.

(3) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/٤١٧، مختار الصحاح، الرازي ص٢١٧.

(4) التعريفات، الجرجاني ص١٥٥.

(5) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٤٦.

(6) الحدود الأنيقة، السنيكي ص٦٦.

(7) موقع موسوعة التَّفسير الموضوعي.

العلمُ فِي الاستعمالِ القرآنِي:

وردتْ مادَّةُ (علم) فِي القرآنِ الكريمِ (778) مرَّةً[1].

وجاءَ العلمُ فِي القرآنِ الكريمِ بمعناهُ اللُّغوِي، والذِي هوَ نقيضُ الجهلِ[2].

قالَ اللهُ تعالَى: {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[الحجرات: 16]، يعنِي: لَا يغيبُ عنْ علمهِ شيءٌ فِي السَّمواتِ ولَا فِي الأرضِ.

{ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ بالعلمِ}

المعرفةُ:

المعرفةُ لغةً:

العلمُ، يقالُ: عرَّفهُ بيتهُ، أيْ: أعلمهُ بمكانهِ، وعرَّفهُ بهِ، وسمهُ[3].

المعرفةُ اصطلاحًا:

إدراكُ الشَّيءِ علَى مَا هوَ بهِ، وهيَ بذلكَ ترادفُ العلمَ، وقيلَ: إنَّهَا تخالفُ العلمَ منْ كونهَا تستدعِي سبقَ جهلٍ بخلافِ العلمِ[4].

الصِّلةُ بينَ المعرفةِ والعلمِ:

العلمُ والمعرفةُ مترادفانِ فِي سياقِ اللَّفظِ والدَّلالةِ، إلَّا أنَّ فعلَ العلمِ يتعدَّى إلَى مفعولينِ، أمَّا فعلُ المعرفةِ فيتعدَّى إلَى مفعولٍ واحدٍ، كذلكَ فإنَّهُ يجوزُ أنْ نقولَ عنِ اللهِ تعالَى بأنَّهُ عالمٌ، ولَا يجوزُ أنْ نقولَ عنهُ عارفٌ؛ إذْ إنّ لفظةَ عارفٍ لمْ ترِدْ فِي القرآنِ ولَا فِي السنَّةِ.

---

(1) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.

(2) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١١٠/٤، لسان العرب، ابن منظور ٤١٦/١٢.

(3) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢٣٦/٩.

(4) انظر: الحدود الأنيقة، السنيكي ص٦٦.

الفقهُ:

الفقهُ لغةً:

العلمُ بالشَّيءِ، والفهمُ لهُ، والفطنةُ، وغلبَ علَى علمِ الدِّينِ؛ لشرفِهِ[1].

الفقهُ اصطلاحًا:

العلمُ بالأحكامِ الشرعيَّةِ العمليَّةِ المكتسبِ منْ أدلَّتهَا التفصيليَّةِ[2]، وهوَ الإصابةُ، والوقوفُ علَى المعنَى الخفيِّ الذِي يتعلَّقُ بهِ الحكمُ، وهوَ علمٌ مستنبطٌ بالرَّأيِ والاجتهادِ، ويُحتاجُ فيهِ إلَى النَّظرِ والتأمُّلِ[3].

الصلةُ بينَ الفقهِ والعلمِ:

الفقهُ أخصُّ منَ العلمِ؛ إذْ إنَّ العلمَ دالٌ علَى كلِّ مَا لهُ أثرٌ وعلامةٌ فيُدركُ علَى مَا هوَ عليهِ، أمَّا الفقهُ فيختصُّ بمَا يُستنبطُ بالرَّأيِ والاجتهادِ، ومَا يحتاجُ إلَى التأمُّلِ والنَّظرِ[4].

---

(1) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٥٠.

(2) شرح جمع الجوامع للمحلي، ص32 ومابعدها، وشرح الإسنوي ص24، وشرح العضد لمختصر ابن الحاجب، ص18، ومرآة الأصول ص50، والمدخل إلى مذهب أحمد، ص58.

(3) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٦٨.

(4) انظر: المصدر السابق.

اليقينُ:

اليقينُ لغةً:

اليَقِينُ: العِلْم وإزاحة الشك وتحقيقُ الأَمر، وقد أَيْقَنَ يُوقِنُ إيقاناً، فهو مُوقِنٌ، ويَقِنَ يَيْقَن يَقَناً، فهو يَقِنٌ.

واليَقِين: نَقيض الشك، والعلم نقيضُ الجهل، تقول عَلِمْتُه يَقيناً[1].

اليقينُ اصطلاحًا:

يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: اليقينُ هوَ طمأنينةُ القلبِ، واستقرارُ العلمِ فيهِ، وضدُّ اليقينِ الرَّيبُ وهوَ نوعٌ منَ الحركةِ والاضطرابِ[2]، ويقولُ السَّعدِي: اليقينُ هوَ العلمُ التَّامِ الذِي ليسَ فِي أدنَى شكٍّ، الموجبِ للعملِ[3].

فهوَ منْ صفةِ العلمِ، فوقَ المعرفةِ والدِّرايةِ وأخواتهمَا، يقالُ: علمُ يقينٍ، ولَا يقالُ: معرفةُ يقينٍ، وهوَ سكونُ القلبِ إلَى خبرِ المخبرِ ووثوقهُ بهِ معَ ثباتِ الحكمِ[4].

وقيلَ: العلمُ بالشَّيءِ بعدَ أنْ كانَ صاحبهُ شاكًا فيهِ؛ ولذلكَ لَا يطلقُ علَى علمهِ تعالَى[5].

---

(1) انظر: لسان العرب ، ومعجم مقاييس اللغة ، والصحاح.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

(4) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٩٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣٩٩/٥.

(5) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٤٧.

وهذَا التَّعريفُ ليسَ مقطوعًا بصحَّتهِ فليسَ كلُّ موقنٍ كانَ شاكًا، بلْ يرسخُ اليقينُ فِي القلبِ دونَ شكٍّ مسبقٍ، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّ اليقينَ نقيضُ الشكِّ، كمَا الظنُّ نقيضُ الوهمِ، والعلمُ نقيضُ الجهلِ.

ولَا ضيرَ إنْ قلنَا أنَّ اليقينَ هوَ: الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ[1]، فيكونُ بهذَا لهُ نفسُ تعريفِ العلمِ، كمَا لَا ضيرَ إنْ قلنَا أنَّ اليقينَ هوَ أعلَى درجاتِ العلمِ.

الصِّلةُ بينَ اليقينِ والعلمِ:

اليقينُ والعلمُ مترادفانِ فِي الدَّلالةِ، غيرَ أنَّهمَا يفترقانِ فِي سياقِ اللَّفظِ، فاليقينُ أعلَى درجاتِ العلمِ وهوَ منْ صفاتهِ، إلَّا أنَّهُ يوجدُ بعضُ الفروقِ بينهَا إنْ ذُكرَ كلُّ واحدٍ منهمَا علَى حدةٍ:

1) اليقينُ أعلَى درجةً منَ العلمِ، فكلُّ يقينٍ علمٌ وليسَ كلُّ علمٍ يقينٌ.

2) اليقينَ يكونُ علمًا وعملًا ويدخلُ فيهِ قولُ القلبِ وعملهُ، وأمَّا العلمُ فلَا يكونُ عملًا بلْ هوَ منْ قبيلِ التَّصديقِ وقولِ القلبِ.

3) اليقينُ يستلزمُ العملَ ويتضمَّنهُ، بينمَا العلمُ لَا يستلزمُ العملَ فالموقنُ لَا يسمَّى موقنًا إلَّا إذَا عملَ.

4) اليقينُ لايساورهُ الشُّكوكُ أمَّا العلمُ فيساورهُ الشكُّ والظنُّ والرَّيبُ[2].

---

(1) التعريفات، الجرجاني ص١٥٥.

(2) رعاية العهود والوفاء بالعقود لما للا اله الا الله من الشروط – خالد بن علي المرضي الغامدي. بتصرف

الجهلُ:

الجهلُ لغةً:

الجهلُ ضدُّ العلمِ، وتجاهلَ: أظهرَ الجهلَ وهوَ ليسَ بجاهلٍ، واستجهلهُ: عدَّهُ جاهلًا واستخفَّهُ، والجهالةُ: أنْ تفعلَ فعلًا بغيرِ علمٍ، وجهلتَ الشَّيءَ: إذَا لمْ تعرفهُ، والجاهلُ: ضدُّ العاقلِ، والجهلُ: ضدُّ الخبرةِ، والجاهليَّةُ: زمنُ الفترةِ، وهيَ حالُ العربِ قبلَ الإسلامِ منَ الجهلِ باللهِ سبحانهُ ورسولهِ ﷺ وشرائعِ الدِّينِ، ومَا كانُوا عليهِ منَ المفاخرةِ بالأنسابِ، والكبرِ والتجبُّرِ وغيرِ ذلكَ منَ الأخلاقِ المذمومةِ[1].

الجهلُ اصطلاحًا:

أنْ تعتقدَ الشَّيءَ علَى خلافِ مَا هوَ عليهِ[2]، وهوَ أعلَى قسميْ الجهلِ ويسمَّى بالجهلِ المركَّبِ، وأمَّ الجهلُ البسيطُ فهوَ عدمُ إدراكِ الشَّيءِ بالكلَّيةِ، ومنهمْ منْ قالَ: الجهلُ علَى ثلاثةِ أقسامٍ، الأوَّلُ: الجهلُ البسيطُ وهوَ: عدمُ الإحاطةِ الكاملةِ بفهمِ المسألةِ، والثَّانِي: الجهلُ الكاملُ وهوَ: نقيضُ العلمِ، وهوَ عدمُ الإحاطةِ بالكلِّيةِ بفهمِ المسألةِ، والثَّالثُ: الجهلُ المركَّبُ وهوَ: إدراكُ الشَّيءِ علَى خلافِ مَا هوَ عليهِ إدراكًا جازمًا.

الصِّلةُ بينَ الجهلِ والعلمِ:

العلمُ والجهلُ مصطلحانِ متضادَّانِ منْ حيثُ المعنَى والدَّلالةِ.

وقدْ تحدَّثنَا عنْ أقسامِ الجهلِ، بينَ بسيطٍ ومركَّبٍ سابقا.

---

(1) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢٩/١١، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣٢٢/٣.

(2) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٠٩، العين، الفراهيدي ٣٩٠/٣.

{العلمُ صفةُ اللهِ تعالَى}

فمنْ أسماءِ اللهِ تعالَى "العليم" ومنْ صفاتهِ سبحانهُ العلمُ، وعلمُ اللهِ تعالَى ثابتٌ بالكتابِ والسنَّةِ والعقلِ.

قالَ اللهُ تعالَى: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ}[الأعراف:7]، وقالَ جلَّ وعلَا: {وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[الشورى:25]، وقالَ سبحانهُ: {وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ}[البقرة:255]، وقالَ: {فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ}[هود:14]، وقالَ تعالَى: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}[فاطر:11]، وعلمُ اللهِ تعالَى صفةٌ منْ صفاتهِ جلَّ وعلَا الثَّابتةِ بالكتابِ والسنَّة والعقلِ، وهيَ صفةٌ أزليَّةٌ أبديَّةٌ ثبوتيَّةٌ ذاتيَّةٌ، ولَا يُنكرُ صفةَ العلمِ عنِ اللهِ تعالَى إلَّا جاهلٌ جهلًا مركَّبًا.

وقدْ وردَ اسمُ اللهِ العليمِ فِي القرآن 157 مرَّةً وفِي هذَا دلائلُ علَى أهمِّيتهِ.

{معنَى اسمِ اللهِ العليمِ ودلالتهِ}

العليمُ منَ العلمِ وهوَ نقيضُ الجهلِ، وعَلِمتُ الشَّيءَ: أيْ عرفتهُ وخبرتهُ، فالعلمُ لَا يقتصرُ علَى معرفةِ الظَّاهرِ، وإنَّمَا ينضمُّ إليهِ معرفةُ حقيقةِ الشَّيءِ، وهذَا متعذِّرٌ فِي حقِّ العبدِ تجاهَ اللهِ تعالَى؛ لذَا لَا يصحُّ أنْ تقولَ: "عَلِمتُ اللهَ" وإنَّما تقولُ: "عرفتُ اللهَ".

وشتَّانَ بينَ علمٍ مقيَّدٍ محدودٍ وعلمٍ مُطلقٍ بلَا حدودٍ، فسبحانهُ وتعالَى فِي كمالِ علمهِ وطلاقةِ وصفهِ، فعلمهُ فوقَ علمِ كلِّ ذِي علمٍ كمَا قالَ اللهُ تعالَى: {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[يوسف:76]، فعلمُ اللهِ تعالَى: علمٌ بمَا كانَ، ومَا هوَ كائنٌ، ومَا سيكونُ، ومَا لمْ يكنْ لوَ كانَ كيفَ يكونُ. أحاطَ علمهُ سبحانهُ وتعالَى بجميعِ الأشياءِ ظاهرهَا وباطنهَا، دقيقهَا وجليلهَا، فاسمُ اللهِ العليمِ، أشتملَ علَى مراتبِ العلمِ الإلهيِّ وهيَ أربعةٌ:

1) علمهُ سبحانهُ بالشَّيءِ قبلَ كونهِ:

وهوَ سرُّ اللهِ فِي خلقهِ، لَا يعلمهُ ملكٌ مُقرَّبٌ ولَا نبيٌ مُرسلٌ، ويُسمَّى علمَ التَّقديرِ ومفتاحِ مَا سيصيرُ، فيعلمُ سبحانهُ منْ همْ أهلُ الجنَّةِ ومنْ همْ أهلُ السعيرِ، فكلُّ أمورِ الغيبِ قدَّرهَا اللهُ فِي الأزلِ ومفتاحهَا عندهُ وحدهُ، لذلكَ قالَ تعالَى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}[الأنعام:59]، وقالَ سبحانهُ: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[لقمان:34].

2) علمهُ تعالَى بالشَّيءِ وهوَ فِي اللَّوحِ المحفوظِ بعدَ كتابتهِ وقبلَ إنفاذِ أمرهِ ومشيئتهِ:

فاللهُ عزَّ وجلَّ كتبَ مقاديرَ الخلائقِ فِي اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ أنْ يخلقهمْ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، والمخلوقاتُ فِي اللَّوحِ قبلَ إنشائهَا عبارةٌ عنْ كلماتٍ، يقولُ اللهُ تعالَى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[الحج:70] وقالَ تعالَى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[الحديد:22].

3) علمهُ سبحانهُ وتعالَى بالشَّيءِ حالَ كونهِ وتنفيذهِ ووقتِ خلقهِ وتصنيعهِ: يقولُ اللهُ تعالَى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}[الرعد: 8 – 9]، وقالَ تعالَى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ}[سبأ: 2].

4) علمهُ جلَّ جلالهُ بالشَّيءِ بعدَ كونهِ وتخليقهِ وإحاطتهِ بالفعلِ بعدَ كسبهِ وتحقيقهِ:

فاللهُ عزَّ وجلَّ يعلمُ مَا سيفعلُ المخلوقُ قبلَ أنْ يُخلقَ المخلوقُ وبعدَ أنْ يُخلقَ، ويعلمُ تفاصيلَ أفعالهِ وخواطرهِ وحديثَ نفسهِ، يقولُ تعالَى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[التوبة:78].

وتلكَ المراتبُ الأربعُ السَّابقةُ ذُكِرتْ فِي قولِ اللهِ جلَّ وعلَا: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[الأنعام:59].

فاللهُ سبحانهُ وتعالَى عالمٌ بكلِّ شيءٍ فِي كلِّ وقتٍ وفِي كلِّ حينٍ، يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى:

وَهُوَ العليمُ أَحَاطَ عِلْماً بِالَّذِي * فِي الكونِ مِنْ سِرٍّ ومنْ إِعْلانِ

وبكلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَـــهُ * فهوَ المحيطُ وليسَ ذَا نِسْيَـانِ

ويقولُ أيضًا:

وكذاكَ يَعْلَمُ ما يَكُونُ غَداً ومَا * قدْ كانَ والموجودَ فِي ذَا الآنِ

وكذاكَ أَمْرٌ لمْ يَكُنْ لوْ كانَ كيـ * ـفَ يكونُ ذاكَ الأمرُ ذا إِمْكَانِ[1]

{العلمُ وصفٌ للمخلوقاتِ}

1) علمُ الملائكةِ عليهمُ السَّلامُ:

قالَ تعالَى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[البقرة: 32]، ففِي الآيةِ إثباتٌ لعلمِ الملائكة عليهمُ السَّلامُ، فقولهُ تعالَى: (إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) يفيدُ سبقَ العلمِ لهمْ إِلَّا أنَّ علمهمْ مقيَّدٌ محصورٌ وعلمُ اللهِ تعالَى مطلقٌ غيرُ محدودٍ، فلَا يحيطونَ بشيءٍ منْ علمهِ إِلَّا بمَا شاءَ سبحانهُ.

2) علمُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ:

قالَ تعالَى فِي حقِّ آدمَ: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[البقرة: 31]، ففِي هذَا المقامِ ذكَرَ اللهُ تعالَى شرفَ آدمَ علَى الملائكةِ بمَا أختصَّهُ منْ علمِ أسماءِ كلِّ شيءٍ دونهمْ.

وقالَ تعالَى فِي حقِّ إبراهيمَ: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا}[مريم: 43].

وقالَ تعالَى فِي لوطٍ: {وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا}[الأنبياء: 47].

(1) القصيدة النونية (241).

وقالَ تعالَى فِي حقِّ يعقوبَ: {وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ}[يوسف: 68].

وقالَ تعالَى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا}[يوسف: 22].

وهكذَا بقيَّةُ الأنبياءِ وصولًا إلَى خاتمهمْ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ، قالَ تعالَى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}[النساء: 113]، يقولُ البغوِي: قولهُ تعالَى: (ولولَا فضلُ اللهِ عليكَ ورحمتهُ) يقولُ للنبيِّ ﷺ: (لهمَّتْ) لقدْ همَّتْ أيْ: أضمرتْ، (طائفةٌ منهمْ) يعنِي : قومَ طعمةَ، (أنْ يضلُّوكَ) يخطِّئوكَ فِي الحكمِ ويلبسُوا عليكَ الأمرَ حتَّى تدافعَ عنْ طعمةَ، (ومَا يضلُّونَ إلَّا أنفسهمْ) يعنِي يرجعُ وبالهُ عليهمْ، (ومَا يضرُّونكَ منْ شيءٍ) يريدُ أنَّ ضررهُ يرجعُ إليهمْ، (وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ) يعنِي: القرآنَ، (والحكمةَ) يعنِي: القضاءَ بالوحيِ – وأجمعُوا علَى أنَّ الحكمةَ هيَ السنَّةُ – (وعلَّمكَ مَا لمْ تكنْ تعلمُ) منَ الأحكامِ، وقيلَ: منْ علمِ الغيبِ، (وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيمًا)[1].

وأمَّ سببُ نزولِ هذهِ الآيةِ: قالَ السَّعدِي: وذلكَ أنَّ هذهِ الآياتِ الكريماتِ قدْ ذكرَ المفسِّرونَ أنَّ سببَ نزولهَا: أنَّ أهلَ بيتٍ سرقُوا فِي المدينةِ، فلمَّا اطُّلِعَ علَى سرقتهمْ خافُوا الفضيحةَ، وأخذُوا سرقتهمْ فرموهَا ببيتِ منْ هوَ بريءٌ منْ ذلكَ،

---

(1) تفسير البغوي.

واستعانَ السَّارقُ بقومهِ أنْ يأتُوا رسولَ اللهِ ﷺ ويطلُبوا منهُ أنْ يبرِّئَ صاحبهمْ علَى رءوسِ النَّاسِ، وقالُوا: إنَّهُ لمْ يسرقْ وإنَّمَا الذِي سرقَ منْ وُجدتِ السَّرقةُ ببيتهِ وهوَ البريءُ، فهَمَّ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يبرِّئَ صاحبهمْ، فأنزلَ اللهُ تعالَى هذهِ الآياتِ تذكيرًا وتبييناً لتلكَ الواقعةِ وتحذيرًا للرَّسولِ ﷺ منَ المخاصمةِ عنِ الخائنينَ...[1].

3) علمُ المؤمنينَ:

قالَ تعالَى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}[آل عمران: 7]، قالَ الطَّبرِي: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال : حدثنا خالد بن نزار عن نافع عن ابن أبي مليكة عن عائشة قوله: " والراسخون في العلم يقولون آمنا به " قالت : كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ، ولم يعلموا تأويله[2].

وبهذَا أثبتَ اللهُ تعالَى لهم بعضَ العلمِ ونفَى عنهمُ الإحاطةَ بكلِّهِ.

---

(1) تفسير السعدي.

(2) تفسير الطبري.

4) علمُ الجنِّ والشَّياطينِ:

قالَ تعالَى: {وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}[الصافات: 158]، وفِي هذَا دليلٌ علَى علمِ الجنِّ وأنَّهمْ محضرونَ بينَ يديِ اللهِ تعالَى.

وقالَ تعالَى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}[البقرة: 102]، وفي هذه الآية دليلٌ على أن العلم نوعان، منه ما هو حقٌ، ومنه ما هو باطلٌ، فتعليم السحر باطلٌ باتفاق[1].

5) علمُ الطيورِ والحيواناتِ:

قالَ تعالَى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لاَذْبَحَنَّهُ أَوْ ليأتيني بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سبأ بنبأ يَقِينٍ}[النمل: 20 – 22].

أي: أنَّ الهدهدُ غادرَ زمنًا ثمَّ حضرَ فعاتبهُ سليمانُ علَى مغيبهِ وتخلُّفهِ, فقالَ لهُ الهدهدُ: علمتُ مَا لمْ تعلمهُ منَ الأمرِ علَى وجهِ الإحاطةِ, وجئتكَ منْ مدينةِ "سبأٍ" باليمنِ بخبرٍ خطيرِ الشَّأنِ, وأنَا علَى يقينٍ منهُ، وفِي هذَا إثباتٌ لعلمِ الطُّيورِ، ومنهُ سائرُ الحيواناتِ والحشراتِ لقولهِ تعالَى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[النمل: 18].

---

(1) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/٢٧٧.

6) علمُ الإنسانِ عمومًا المسلمِ والكافرِ:

قالَ تعالَى: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[العلق: 5].

قالَ السَّعدِي: (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فإنَّهُ تعالَى أخرجهُ منْ بطنِ أمهِ لَا يعلمُ شيئًا، وجعلَ لهُ السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ، ويسَّرَ لهُ أسبابَ العلمِ، فعلَّمهُ القرآنَ، وعلَّمهُ الحكمةَ، وعلَّمهُ بالقلمِ، الذِي بهِ تحفظُ بهِ العلومُ...[1].

وهذَا العلمُ الذِي اختصَّ اللهُ تعالَى بهِ النَّاسِ جميعًا، فهوَ إمَّا حجَّةٌ لهمْ وإمَّا حجَّةٌ عليهمُ، فهمْ فِي هذهِ الحالِ علَى أربعةِ أقسامٍ:

1) فأمَّا منِ استعملهُ فِي طاعةِ اللهِ منَ المسلمينَ فهوَ حجَّةٌ لهُ، ولهُ أجرُ مَا عملَ بعلمهِ وأجرُ منْ علَّمهُ ولَا ينقطعُ أجرهُ ولوْ بعدضِ موتهِ، فعنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رضيَ اللهُ عنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ"[2]، وقالَ ﷺ: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[3].

2) وأمَّا منِ استعملهُ فِي غيرِ طاعةِ اللهِ منَ المسلمينَ فهوَ حجَّةٌ عليهِ، فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا"[4].

---

(1) تفسير السعدي.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه مسلم.

(4) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

3) وأمَّا منْ استعملَ العلمَ فِي مَا يوافقُ رضوانَ اللهِ منْ غيرِ المسلمينَ فيُجزَى بهِ فِي دنياهُ ومَالهُ فِي الآخرةِ منْ نصيبٍ، ففِي صحيحِ مسلمٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: "إنَّ اللهَ لَا يظلمُ مؤمناً حسنةً يعطَى بهَا فِي الدُّنيَا ويجزَى بهَا فِي الآخرةِ، وأمَّا الكافرُ فيُطعمُ بحسناتِ مَا عملَ بهَا للهِ فِي الدُّنيَا حتَّى إذَا أفضَى إلَى الآخرةِ لمْ تكنْ لهُ حسنةٌ يجزَى بهَا[1].

4) وأمَّا منِ استعملهُ فِي مَا لَا يرضِي اللهَ منْ غيرِ المسلمينَ فعقابهُ يومَ القيامةِ ضعفينِ، عذابُ الخلدِ بكفرِهِ، وعذابٌ لاستعمالهِ مَا علَّمهُ اللهُ فِي غيرِ مرضاةِ اللهِ تعالَى، قالَ تعالَى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[آل عمران: 19].

{أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ}[هود: 20].

---

(1) صحيح مسلم.

{العلمُ النَّافعُ}

إنَّ أهمَّ وأنفعَ أسبابِ زيادةِ الإيمانِ تعلُّمِ العلمِ النَّافعِ علمُ الشَّريعةِ المستمَّدِ منْ كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولهِ ﷺ[1].

مَا هوَ العلمُ النَّافعُ؟

قالَ ابنُ رجبٍ معرِّفًا بهذَا العلمِ: فالعلمُ النَّافعُ هوَ ضبطُ نصوصِ الكتابِ والسنَّةِ وفهمِ معانيهَا، والتقيُّدُ فِي ذلكَ بالمأثورِ عنِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهمْ فِي معانِي القرآنِ والحديثِ، وفيمَا وردَ عنهمْ منَ الكلامِ فِي مسائلِ الحلالِ والحرامِ والزُّهدِ والرَّقائقِ والمعارفِ وغيرِ ذلكَ، والاجتهادُ علَى تمييزِ صحيحهِ منْ سقيمهِ أوَّلاً، ثمَّ الاجتهادُ علَى الوقوفِ علَى معانيهِ وتفهُّمهِ ثانياً، وفِي ذلكَ كفايةٌ لمنْ عقلَ، وشغلٌ لمنْ بالعلمِ النَّافعِ عنيَ واشتغلَ...[2].

وقالَ ابنُ حجرٍ: والمرادُ بالعلمِ: العلمُ الشرعيِّ الذِي يفيدُ مَا يجبُ علَى المكلِّفِ منْ أمرِ دينهِ فِي عبادتهِ ومعاملاتهِ، والعلمِ باللهِ وصفاتهِ، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه)[3].

---

(1) ((الفتاوى)) (80/28).

(2) ((فضل علم السلف على علم الخلف)) (ص: 45).

(3) ((فتح الباري)) (141/1).

فمنْ وفِّقَ لهذَا العلمِ، فقدْ وفِّقَ لأعظمِ أسبابِ زيادةِ الإيمانِ، ومنْ تأمَّلَ نصوصَ الكتابِ والسنَّةِ علمَ ذلكَ:

قالَ اللهُ تعالَى: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران: 18].

وقالَ تعالَى: {لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء: 162].

وقالَ تعالَى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[سبأ: 6].

وقالَ تعالَى: {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[فاطر: 28].

وقالَ تعالَى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة: 11].

وفِي الصَّحيحينِ منْ حديثِ معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ يردِ اللهُ بهِ خيراً يفقِّههُ فِي الدِّينِ"[1].

(1) أخرجه البخاري (71)، ومسلم (1037).

وفِي المسندِ وغيرِهِ منْ حديثِ أبِي الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "منْ سلكَ طريقاً يطلبُ فيهِ علماً، سلكَ اللهُ بهِ طريقاً منْ طرقِ الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتهَا لطالبِ العلمِ رضاً بمَا يصنعُ، وإنَّ العالمَ ليستغفرُ لهُ منْ فِي السَّمواتِ ومنْ فِي الأرضِ والحيتانُ فِي جوفِ الماءِ، وإنَّ فضلَ العالمِ علَى العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةِ البدرِ علَى سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لمْ يورِّثُوا ديناراً ولَا درهماً، إنَّمَا ورَّثُوا العلمَ، فمنْ أخذهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ"[1].

وفِي التِّرمذِي وغيرِهِ منْ حديثِ أبِي أمامةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "فضلُ العالمِ علَى العابدِ كفضلِي علَى أدناكمْ، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وملائكتَهُ وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ، حتَّى النَّملةَ فِي جحرهَا وحتَّى الحوتَ ليصلُّونَ علَى معلِّمِ النَّاسَ الخيرَ"[2].

فهذهِ النَّصوصُ المذكورةُ فيهَا بيانُ منزلةِ العلمِ ومكانتهِ، وعظمِ شأنهِ وأهميَّتهِ، ومَا يترتَّبُ عليهِ منْ آثارٍ حميدةٍ وخصالٍ كريمةٍ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ومَا ينتجُ عنهُ منْ خضوعٍ وانقيادٍ لشرعِ اللهِ تعالَى، وإذعانٍ وامتثالٍ لأمرهِ تعالَى، فالعالمُ عرفَ ربَّهُ، وعرفَ نبيَّهُ، وعرفَ أوامرَ اللهِ وحدودهِ، وميَّزَ بينَ مَا يحبُّهُ اللهُ تعالَى ويرضاهُ وبينَ مَا يكرههُ ويأباهُ، فهوَ يعملُ بأمرِ اللهِ تعالَى فيمَا يأتِي ويذرُ، هذَا إنْ وفِّقَ للعملِ بمَا علمَ وإلَّا فعلمهُ وبالٌ عليهِ.

---

(1) رواه أحمد (196/5) (21763). ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان. والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الترمذي: ليس هو عندي بمتصل، وقال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (106/4): لا يصح، وقال ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (247/25): له طرق كثيرة، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (151/1)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)): صحيح.

(2) رواه الترمذي (2685). وقال: غريب، وصححه الألباني في (صحيح سنن الترمذي).

قالَ الآجرِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي مقدِّمةِ كتابِهِ (أخلاقُ العلماءِ): إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وتقدَّستْ أسماؤهُ اختصَّ منْ خلقِهِ منْ أحبَّ فهداهمْ للإيمانِ، ثمَّ اختصَّ منْ سائرِ المؤمنينَ منْ أحبَّ فتفضَّلَ عليهمْ فعلَّمهمُ الكتابِ والحكمةَ وفقَّههمْ فِي الدِّينِ وعلَّمهمُ التَّأويلَ، وفضَّلهمْ علَى سائرِ المؤمنينَ، وذلكَ فِي كلِّ زمانٍ وأوانٍ، رفعهمْ بالعلمِ وزيَّنهمْ بالحلمِ، بهمْ يُعرفُ الحلالُ منَ الحرامِ، والحقُّ منَ الباطلِ، والضَّارُ منَ النَّافعِ، والحسنُ منَ القبيحِ، فضلهمْ عظيمٌ وخطرهمْ جزيلٌ، ورثةُ الأنبياءِ، وقرَّةُ عينِ الأولياءِ، الحيتانُ فِي البحارِ لهمْ تستغفرُ، والملائكةُ بأجنحتهَا لهمْ تخضعُ، والعلماءُ فِي القيامةِ بعدَ الأنبياءِ تشفعُ، مجالسهمْ تقيدُ الحكمةَ، وبأعمالهمْ ينزجرُ أهلُ الغفلةِ، همْ أفضلُ منَ العبَّادِ، وأعلَى درجةً منَ الزُّهادِ، حياتهمْ غنيمةٌ، وموتهمْ مصيبةٌ، يذكِّرونَ الغافلَ، ويعلِّمونَ الجاهلَ، لَا يُتوقَّعُ لهمْ بائقةٌ، ولَا يُخافُ منهمْ غائلةٌ، بحسنِ تأديبهمْ يتنازعُ المطيعونَ، وبجميلِ موعظتهمْ يرجعُ المقصِّرونَ، جميعُ الخلقِ إلَى علمهمْ محتاجٌ ... إلَى أنْ قالَ: فهمْ سراجُ العبادِ، ومنارُ البلادِ، وقوامُ الأمَّةِ، وينابيعُ الحكمةِ، همْ غيظُ الشَّيطانِ، بهمْ تحيَا قلوبُ أهلِ الحقِّ، وتموتُ قلوبُ أهلِ الزَّيغِ، مثلهمْ فِي الأرضِ كمثلِ النُّجومِ يُهتدَى بهَا فِي ظلماتِ البرِّ والبحرِّ، إذَا انطمستِ النُّجومُ تحيَّرُوا، وإذَا أسفرَ عنهَا الظَّلامُ أبصرُوا[1].

---

(1) ((أخلاق العلماء)) (ص: 13).

ثمَّ ساقَ رحمهُ اللهُ تعالَى منْ نصوصِ الكتابِ والسنَّةِ وأقوالِ أهلِ العلمِ مَا يؤيِّدُ مَا ذكرهُ.

فالعلمُ لهُ منزلةٌ عاليةٌ، ومكانةٌ سامقةٌ، ومنْ أعظمِ مَا يبيِّنُ فضلهُ وعظمَ شأنهِ، قولُ اللهِ تعالَى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[المجادلة: 11].

قيلَ فِي تفسيرهَا: يرفعُ اللهُ المؤمنَ العالمَ علَى المؤمنِ غيرِ العالمِ، ورفعةُ الدَّرجاتِ تدلُّ علَى الفضلِ، إذِ المرادُ بهِ كثرةُ الثَّوابِ وبهَا تُرتفعُ الدَّرجاتُ، ورفعتهَا تشملُ المعنويَّةَ فِي الدُّنيَا بعلوِّ المنزلةِ وحسنِ الصيتِ، والحسيَّةِ فِي الآخرةِ بعلوِّ المنزلةِ فِي الجنَّةِ[1].

وكذلكَ قولُ اللهِ تعالَى: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[طه: 114].

ودلالةُ هذهِ الآيةِ علَى فضلِ العلمِ ظاهرةٌ، لأنَّ اللهَ لمْ يأمرْ نبيَّهُ ﷺ بطلبِ الازديادِ منْ شيءٍ إلَّا منَ العلمِ، لمَا يترتَّبُ عليهِ منْ زيادةِ الإيمانِ والثَّباتِ عليهِ، قالَ تعالَى:

{وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ}[آل عمران: 7].

وقالَ تعالَى: {لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}[النساء: 162].

وقالَ تعالَى: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[آل عمران: 18].

---

(1) ((فتح الباري)) لابن حجر (141/1).

وهذهِ الآيةُ الأخيرةُ كتبَ فيهَا ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى بحثاً حافلاً بيَّنَ فيهِ دلالتهَا علَى فضلِ العلمِ منْ وجوهٍ كثيرةٍ جدًا، تربُو علَى مائةٍ وخمسينَ وجهاً، فِي كتابهِ "مفتاح دار السعادة"[1].

وقولُ النبيِّ ﷺ: "منْ يردِ اللهُ بهِ خيرًا يفقِّههُ فِي الدِّينِ"[2] فهذَا الحديثُ منْ أعظمِ مَا يُبيِّنُ فضلَ العلمِ وأهلهِ، قالَ ابنُ القيِّمِ: وهذَا يدلُّ علَى أنَّ منْ لمْ يفقِّههُ فِي دينهِ لمْ يردْ بهِ خيراً، كمَا أنَّ منْ أرادَ بهِ خيراً فقَّههُ فِي دينهِ، ومنْ فقَّههُ فِي دينهِ فقدْ أرادَ بهِ خيراً، إذَا أريدُ بالفقهِ العلمِ المستلزمِ للعملِ، وأمَّا إنْ أُريدَ بهِ مجرَّدَ العلمِ فَلَا يدلُّ علَى أنَّ منْ فَقِهَ فِي الدِّينِ فقدْ أُريدَ بهِ خيراً، فإنَّ الفقهَ حينئذٍ يكونُ شرطاً لإرادةِ الخيرِ وعلَى الأوَّلِ يكونُ موجباً واللهُ أعلمُ[3].

وكمَا تحدَّثنَا سابقًا، يجبُ أنْ يكونَ العملُ مقترنًا بالعلمِ وإنْ لَا فهوَ حجَّةٌ علَى صاحبهِ.

قالَ شيخُ الإسلامِ: ... ولهذَا يقالُ: العلمُ علمانِ: علمٌ فِي القلبِ، وعلمٌ علَى اللِّسانِ، فعلمُ القلبِ هوَ العلمُ النَّافعُ، وعلمُ اللِّسانِ هوَ حجَّةُ اللهِ علَى عبادهِ[4]، فالفقيهُ الذِي تفقَّهَ قلبهُ، غيرَ الخطيبِ الذِي يخطبُ بلسانهِ، وقدْ يحصلُ للقلبِ منَ الفقهِ والعلمِ أمورٌ عظيمةٌ، ولَا يكونُ صاحبهُ مخاطباً بذلكَ لغيرهِ، وقدْ يخاطبُ غيرهُ بأمورٍ كثيرةٍ منْ معارفِ القلوبِ وأحوالهَا، وهوَ عارٍ عنْ ذلكَ، فارغٌ منهُ[5].

(1) ينظر صـ 52 وما بعدها من كتاب مفتاح دار السعادة.

(2) أخرجه البخاري (71)، ومسلم (1037).

(3) ((مفتاح دار السعادة)) (ص: 65)، وانظر: ((الفتاوى)) (80/28).

(4) هذا من كلام الحسن البصري رحمه الله، أخرجه الدارمي (102/1) وغيره وذكره شيخ الإسلام في ((الفتاوى)) وعزاه للحسن انظر: (23/7).

(5) ((درء التعارض)) (453/7).

وبمَا تقدَّمَ يُعرفُ قدرُ العلمِ ومكانتهِ، وعظمِ منافعهِ وعوائدهِ، وقوَّةِ أثرهِ علَى قوَّةِ الإيمانِ وثباتهِ، وأنَّهُ أعظمُ أسبابِ زيادتهِ ونمائهِ وقوَّتهِ، وذلكَ لمنْ عملَ بهِ، بلْ إنَّ الأعمالَ إنَّمَا تتفاوتُ فِي زيادتهَا ونقصهَا، وقبولهضا وردِّهَا منْ جهةِ موافقتهَا للعلمِ ومطابقتهَا لهُ، كمَا قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: والأعمالُ إنَّمَا تتفاوتُ فِي القبولِ والردِّ بحسبِ موافقتهَا للعلمِ ومخالفتهَا لهُ، فالعملُ الموافقُ للعلمِ هوَ المقبولُ، والمخالفُ لهُ هوَ المردودُ؛ فالعلمُ هوَ الميزانُ، وهوَ المحكُّ[1].

وقالَ رحمهُ اللهُ تعالَى: وكلُّ علمٍ وعملٍ لَا يزيدُ الإيمانَ قوَّةً فمدخولٌ...[2].

وزيادةُ الإيمانِ الحاصلةِ منْ جهةِ العلمِ تكونُ منْ وجوهٍ متعدِّدةٍ: منْ جهةِ خروجِ أهلهِ فِي طلبِ العلمِ، وجلوسهمْ فِي حلقِ الذِّكرِ، ومذاكرةِ بعضهمْ بعضاً فِي مسائلِ العلمِ، وزيادةِ معرفتهمْ باللهِ وشرعهِ، وتطبيقهمْ لمَا تعلَّموهُ، وفيمنْ تعلَّمَ منهمُ العلمَ لهمْ فيهِ أجرٌ، فهذهِ جوانبٌ متعدِّدةٌ يزدادُ بهِ الإيمانُ بسببِ العلمِ وتحصيلهِ.

قالَ ابنُ رجبٍ: فمتَى كانَ العلمُ نافعاً ووقرَ فِي القلبِ فقدْ خشعَ القلبُ للهِ وانكسرَ لهُ وذلَّ هيبةً وإجلالاً وخشيةً ومحبَّةً وتعظيماً، ومتَى خشعَ القلبُ للهِ وذلَّ وانكسرَ لهُ قنعتِ النَّفسُ بيسيرِ الحلالِ فِي الدُّنيَا وشبعتْ بهِ فأوجبَ لهَا ذلكَ القناعةَ والزُّهدَ فِي الدُّنيَا ... وأوجبَ لهُ علمهُ المسارعةَ إلَى مَا فيهِ محبَّةَ اللهِ ورضاهُ والتَّباعدَ عمَّا يكرههُ ويسخطهُ[3].

---

(1) ((مفتاح دار السعادة)) (ص: 89).

(2) ((الفوائد)) (ص: 162).

(3) ((فضل علم السلف على علم الخلف)) (ص: 46) بتقديم وتأخير في النقل.

مطلب

فِي الإعرضِ عنْ تعلُّمِ العلمِ النَّافعِ

إنَّ الإعراضَ عنْ تعلُمِ علمِ اللهِ تعالَى مصيبةٌ كبيرةٌ للفردِ والمجتمعِ، ولهَا أثارٌ سلبيَّةٌ تقودُ إلَى التَّهلكِ فِي الدُّنيا والآخرة، وقبلَ الخوضِ فِي هذَا المطلبِ نستعرضُ، بعضَ الأحاديثِ، لتكونَ أصلًا نبنِي عليهِ فروعَ المطلبِ:

1) عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لا يُحَدِّثُكُمْ أحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: "مِن أشْراطِ السَّاعَةِ: أنْ يَقِلَّ العِلْمُ، ويَظْهَرَ الجَهْلُ..."[1].

2) وفِي روايةٍ أخرَى: "لا تَقومُ السَّاعةُ حتى يُرفَعَ العِلمُ، ويَظهَرَ الجهلُ..."[2].

3) وفِي روايةٍ: "لا تَقومُ السَّاعةُ حتى يُقبَضَ العِلْمُ، ويَظهَرَ الجَهلُ[3]".

4) وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: "قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ، وإنَّ طالبَ العلمِ يستغفِرُ له كلُّ شيءٍ، حتى الحيتانِ في البحرِ"[4].

5) وعنْ أبِي هريرةَ وابنِ مسعودٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرَ اللهِ ومَا والاهُ، وعالِمًا أو متعلمًا"[5].

---

(1) أخرجه البخاري (81)، ومسلم (2671).

(2) تخريج المسند الصفحة 13883 إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(3) تخريج المسند 9527 صحيح.

(4) أخرجه ابن ماجه (224) أوله في أثناء حديث، والبزار (6746) مختصراً، وابن عبدالبر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (17) واللفظ له.

(5) صحيح الجامع 3414.

6) وعنْ أبِي واقدٍ اللَّيثِي: أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ بيْنَمَا هوَ جَالِسٌ في المَسْجِدِ والنَّاسُ معهُ إذْ أقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فأقْبَلَ اثْنَانِ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وذَهَبَ واحِدٌ، قالَ: فَوَقَفَا علَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فأمَّا أحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وأَمَّا الثَّالِثُ: فأدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ قالَ: ألَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أمَّا أحَدُهُمْ فأوَى إلى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ منه، وأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه[1].

وَلَا نطيلُ فِي سردِ الأحاديثِ ونكتفِي بشرحِ مَا سبقَ.

فأمَّا الحديثُ الأوَّلُ: فقدْ أشارَ المعلِّمُ ﷺ أنَّ منْ جملةِ أشراطِ السَّاعةِ أن يقلَّ العلمُ، فكلَّمَا قلَّ العلمُ اقتربتِ السَّاعةُ فإذَا مَا عُدمَ العلمُ منَ الأرضِ قامتِ السَّاعةُ، والدَّليلُ علَى ذلكَ:

الحديثُ والثَّاني والثَّالثُ: وفيهمَا "لَا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يُرفعُ العلمُ"، ولَا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يُقبَضَ العِلْمُ" فكأنَّ قيامَ السَّاعةِ مقيَّدٌ بزوالِ العلمِ منَ الأرضِ، وكيفَ لَا والعملُ مقيَّدٌ بالعلمِ فبلَا علمٍ لَا يُدرَى مَا الصَّلاةُ ولَا الزَّكاةُ ولَا الصَّومُ والحجُّ بلْ بلَا علمٍ لَا يُدرَى معنَى لَا إلهَ إلَّا اللهُ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ، حتَّى لَا يُدرَى مَا صيامٌ و لَا صلاةٌ و لَا نُسُكٌ ولا صدقةٌ، وليَسْرِى على كتابِ اللهَ عزَّ وجلَّ في ليلةٍ فلَا يبقَى فِي الأرضِ منهُ آيةٌ، وتبقَى طوائفٌ منَ النَّاسِ: الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ، يقولونَ: أدْرَكْنا آباءَنَا علَى هذهِ الكلمةِ: "لا إلهَ إلا اللهُ"، فنحنُ نقولُها[2].

(1) صحيح البخاري.

(2) رواه حذيفة بن اليمان وأخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة وقال: صحيح على شرط مسلم.

ومَا تنفعُ الدُّنيَا وقدْ بلغَ أهلهَا هذَا المبلغِ، فزوالهَا أولَى لهَا، فهؤلاءِ النَّاسِ همْ بدايةُ شرارِ الخلقِ الذِينَ تقومُ عليهمُ السَّاعةُ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: "تقومُ السَّاعةُ أوْ لَا تقومُ السَّاعةُ إلَّا علَى شرارِ النَّاسِ"[1].

وقولهُ تقومُ السَّاعةُ أوْ لَا تقومُ: هذَا منْ حسنِ أدبِ الصَّحابةِ حالَ سردِ حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ فإنَّ الرَّاوِي ينسَى اللَّفظَ علَى أصلهِ أحيانًا ويتذكَّرُ لفظينِ متقاربينِ فيذكرهمَا فيقولُ تقومُ السَّاعةُ أولَا تقومُ السَّاعةُ، أيْ تقومُ السَّاعةُ علَى شرارِ الخلقِ، أو لَا تقومُ السَّاعةُ إلَّا علَى شرارِ الخلقِ، والمعنَى واحدٌ.

وبهذَا الحديثِ الأخيرِ يتبَّنُ أنَّ السَّاعةُ لَا تقومُ حتَّى يُرفعَ العلمُ بالكليَّةِ ولَا يبقَى شخصُ يذكرُ كلمةَ لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فيفنَى جيلُ الشُّيوخِ والعجَّزِ الذينَ يذكرونَ كلمةً سمعوهَا منْ آبائهمْ وهي لَا إلهَ إلَّا اللهُ، فإذَا كانَ الجيلُ الذِي يليهمُ ونسُوا تلكَ الكلمةِ قامتْ عليهمُ السَّاعةُ، ودليلهُ قولهُ ﷺ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ علَى أَحَدٍ يقولُ: اللَّهُ، اللَّهُ"[2].

ونخلصُ منْ كلِّ هذَا أنَّ بدايةُ الطَّامةِ هوَ الإعراضُ عنْ علمِ اللهِ تعالَى، فينجرُ عنهُ ولابدَّ الإعراضُ عنِ العملِ، وكيفَ يعملُ وهوَ لَا يعلمُ؟ فكيفَ سيوحِّدُ اللهَ وكيفَ سيصلِّي ويصومُ؟ ونخرجُ منْ هذهِ الأحاديثِ الثَّلاثةِ بأحكامٍ كثيرةٍ:

أوَّلهَا: أنَّ منْ لَا علمَ لهمْ همْ شرارُ الخلقِ إنْ كانَ عدمُ عِلمِهمُ سببهُ الإعرضُ، ولَا همَّ إنْ كانَ سببُ الإعراضِ هوَ الكِبْرُ أوْ اللَّهوُ.

(1) رواه عبدالله بن مسعود في مسند أحمد: 91/6 وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(2) رواه أنس بن مالك وأخرجه مسلم في صحيحه رقم: 148.

والثَّانِي: أنَّ قيامَ قيامَ السَّاعةِ مرتبطٌ بزوالِ العلمِ.

والثَّالثُ: أنَّ فِي قلَّةِ العلمِ ظهورُ نقيضهِ وهوَ الجهلُ ومَا ينجرُ عنهُ منْ تحليلِ المحرَّماتِ وغيرِ ذلكَ.

أمَّا الحديثُ الرَّابعُ: وفيهِ قولهُ ﷺ: "طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ" والحديثُ صحيحٌ فقدْ رواهُ أئمَّةُ الحديثِ وصحَّحهُ الألبانيُّ رحمهُ اللهُ تعالَى، فقولهُ ﷺ "فريضةٌ" هوَ منْ صيَغِ الوجوبِ أيِ الأمرِ، فتوجدُ ألفاظٌ كثيرةٌ تدلُّ علَى الوجوبِ فِي الكتابِ والسنَّةِ أهمُّها:

صيغة الأمرِ بلفظِ الإنشاءِ أي: الطلبِ، بفعلِ الأمرِ (افْعَلْ) كقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}[الأنعام: 72].

المضارعُ المجزومِ بلامِ الأمرِ كقولهِ تعالَى: {فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}[النساء: 9].

اسمُ فعلِ الأمرِ كقولهِ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}[المائدة: 105]، (عليكم) اسمُ فعلِ أمرٍ.

المصدرُ النَّائبُ عنْ فعلِ الأمرِ (أيِ: الذِي قامَ مقامَ فعلِ أمرٍ، كقولهِ تعالَى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ}[محمد:4].

صيغةُ (كتبَ) و(كُتِبَ)، كقولهِ ﷺ: "إنَّ اللهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ..."[1].

---

(1) أخرجه مسلمٌ من حديثِ شدَّاد بنِ أوسٍ.

وقولهُ تعالَى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}[البقرة :183].

صيغةُ (يوصيكمْ) و(فُرِضَ) منهَا قولهُ تعالَى: {يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِى أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}[النساء: 11].

وغيرِ ذلكَ منْ صيغِ الأمرِ تجدونهَا فِي مظانهَا منْ كتبِ أصولِ الفقهِ.

وبهذَا يكونُ قولهُ ﷺ: "طلبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ"، أمرٌ والأمرُ يقتضِي الوجوبَ أيِ اللُّزومُ، والسؤالُ هلْ طلبِ العلمِ فريضةٌ عينيَّةٌ أوْ كفائيَّةٌ؟ الجواب: منَ العلمِ الشَّرعِي مَا هوَ فرضُ عينٍ علَى كلِّ مكلَّفٍ، وهوَ معلومٌ منَ الدِّينِ بالضَّرورةِ، كتعلُّمِ العقيدةِ وأنواعِ المياهِ والوضوءِ والصَّلاةِ والصَّومِ والحجِّ، ومنهُ مَاهوَ منْ فروضِ الكفايةِ كفروعِ علمِ الشَّرعيةِ منْ بيوعٍ والجناياتِ ونكاحٍ إلَى سائرِ العلومِ النَّافعةِ، وكذلكَ علومُ الآلةِ فهوَ منَ فروضِ الكفاياتِ، كالنَّحوِ والصَّرفِ واللُّغةِ والبلاغةِ والأصولِ والقواعدِ وغيرهَا، ووبيقَى أمرٌ فِي مَا يخصُّ فروعَ العلمِ الشَّرعيِّ أنَّهُ فِي أصلهِ منْ فروضِ الكفايةِ ولكنَّهُ يدورُ حولَ حالِ المكلَّفِ، مثالٌ: علمُ أحكامِ الأسرةِ منْ نكاحٍ وظهارٍ وإيلاءٍ وطلاقٍ وغيرهِ، هوَ فِي أصلهِ فرضُ كفايةٍ، ولكنْ إنْ أرادَ المسلمُ الزَّواجَ وجبَ عليهِ تعلُّمُ مَا يكفيهِ منْ هذَا، لكيْ لَا يقعَ فِي كبيرةٍ دونَ علمٍ أوْ يُطلِّقَ زوجتهُ ولَا يدرِي مَا الرَّجعةُ وكيفَ هيَ وتمرُّ قروءُ العدَّةِ ثمَّ يرجعُ إليهَا دونَ عقدٍ جديدٍ وهيَ قدْ بانتْ بينونةً صغرىَ، فيقعُ فِي الزِّنَا وإيَّاهَا دونَ علمٍ، وكذلكَ علمُ البيوعِ هوَ

فِي أصلِ منْ فروض الكفاياتِ، ولكنْ أنْ أرادَ المسلمُ أنْ يتاجرَ وجبَ عليهِ تعلُمُ مَا يكفيهِ منهُ كيْ لَا يقعَ فِي مثلِ مَا وقعَ فيهِ السَّابقُ، وكذلكَ الحدودُ والجناياتُ، فيحرمُ شرعًا أنْ يتقلَّدَ مسلمٌ منصبَ القاضِي بلَا علمٍ بالجناياتِ.

ونخرجُ منْ هذَا أنَّ العلمِ الشَّرعِي علَى قسمينِ منهُ فرضُ عينِ ومنهُ فرضُ كفايةٍ، وأمَّا فرضُ الكفايةِ فهوَ فِي يدورُ معَ حالِ المكلَّفِ كمَا سبقَ وبيَّنَا.

وإنْ أعرَضَ عنِ العلمِ النَّافعِ كُرهًا فيهِ فقدْ خرجَ منَ الملَّةِ قولًا واحدًا والأدلَّةُ علَى ذلكَ كثيرةٌ جدًا، ويفِي أنْ نقولَ أنَّ العلمَ النَّافعَ هوَ علمُ الكتابِ والسنَّةِ فإنْ أبغَضَ هذَا العلمَ أبغضَ الكتابَ والسَّنةَ، وكرههمَا مخرجٌ منَ الملَّةِ، قالَ تعالَى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}[محمد: 9]، قالَ السَّعدِي: ذلكَ الإضلالُ والتّعسُ للذِينَ كفرُوا، بسببِ أنَّهمْ (كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)[1].

وبهِ قالَ ابنُ عبدِ الوهَّابِ رحمهُ اللهُ تعالَى فِي النَّاقضِ الخامسِ، قالَ: منْ أبغضَ شيئاً ممَّا جاءَ بهِ الرُّسولُ ﷺ ولوْ عملَ بهِ فقدْ كفرَ لقولهِ تعالَى {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}[محمد: 9][2]، وقدْ ذكرتُ هذَا النَّاقضَ فِي بيتين فقلت:

والهاء: بغضُ ما أتى بهِ الرَّسولْ * كأنَّهُ لا يدري ما المنزولْ

مرتدٌّ هالكٌ لا مِريـــــــــــةِ * وإن تمسَّك بدربِ السنَّةِ

وبهذَا القولِ قالَ علماءُ الأمَّةِ وعامَّتهَا إلَّا منْ ضلَّ الصَّوابَ[3].

---

(1) تفسير السعدي.

(2) نواقض الإسلام لمحمد بن عبد الوهاب.

(3) منظومة أبجدية نواقض الإسلامِ للدكتور عصام الدين إبراهيم النقيلي.

وأمَّا الحديثُ الخامسُ: فقالَ فيهِ رسولَ اللهِ ﷺ: "الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلَّا ذكرَ اللهِ وما والاه، وعالِمًا أو متعلمًا".

واللَّعنُ لغةً:

الطَّردُ والإبعادُ علَى سبيلِ السَّخطِ، أوِ الطَّردِ، والإبعادِ منَ الخيرِ، وكلاهمَا بمعنًى واحدٍ، لكنْ قدْ يختلفُ المعنَى بحسبِ قائلِ اللَّعنِ:

فإذَا كانتِ اللَّعنةُ منَ اللهِ تعالَى فِي الآخرةِ؛ فهيَ العقوبةُ والعذابُ والطَّردُ منْ رحمتهِ.

وإذَا كانتْ منهُ سبحانهُ فِي الدُّنيَا؛ فهيَ انقطاعٌ منْ قبولِ رحمتهِ وتوفيقهِ.

وإذَا كانتْ منَ الإنسانِ؛ فهيَ بمعنَى الدُّعاءِ علَى غيرهِ.

وقدْ تكونُ منَ الإنسانِ بمعنَى السبِّ لغيرهِ[1].

والذِي يتعلَّقُ بالحديثِ السَّابقِ بشكلٍ خاصٍ هوَ اللَّعنُ منَ الإنسانِ؛ إمَّا بمعنَى الدُّعاءِ عليهِ بالطَّردِ والإبعادِ منْ رحمةِ اللهِ علَى المعنَى الأقوَى، أوْ بمجرَّدِ السبِّ علَى مَا ذكرهُ ابنُ منظورٍ بصيغةِ التَّضعيفِ.

---

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (5/252-253)؛ لسان العرب لابن منظور: (13/387)؛ مفردات ألفاظ القرآن للأصبهاني، ص: (741)؛ المصباح المنير للفيومي، ص: (212)، كلهم مادة لعن.

اللَّعنُ اصطلاحاً:

جاءَ فِي "المفهمِ للقرطبِي" قالَ: وهوَ فِي الشَّرعِ البعدُ عنْ رحمةِ اللهِ تعالَى وثوابهِ إلَى نارهِ وعقابهِ[1].

وقدْ عرَّفهُ ابنُ عابدينَ نقلاً عنِ القُهُستان رحمهمَا اللهُ تعالَى[2] بقولهِ: وشرعاً فِي حقِّ الكفارِ: الإبعادُ عنْ رحمةِ اللهِ، وفِي حقّ المؤمنينَ: الإسقاطُ عنْ درجةِ الأبرارِ[3].

وموضوعنَا كمَا قلتُ هوَ لعنُ الإنسانِ فقولهُ ﷺ: "الدُّنيَا ملعونةٌ، ملعونٌ مَا فيهَا" والدُّنيَا ومَا فيهَا أيْ كلُّهَا، والدُّنيَا فِيهَا الكافرُ وفيهَا المسلمُ، فتكونُ اللعنةُ للكافرينَ فيهَا إبعادهمْ عنْ رحمةِ اللهِ تعالَى وللمسلمينَ سقوطهمْ منْ درجةٍ عليَا، ثمَّ جاءَ الاستثناءُ بقولهِ ﷺ: "إلَّا ذكرَ اللهِ ومَا والاهُ، وعالِمًا أوْ مُتعلِّمًا" فهذَا الاستثناءُ يُرِي مُبصِرَهُ هولَ موقفِ المنصرفِ عنِ ذكرِ اللهِ وعلمهِ، ولكنَّ الأهمَّ أنَّ العلمَ النَّافعَ منْ جملةِ ذكرِ اللهِ تعالَى ومَا والاهُ، وجاءَ الخطابُ معطوفًا بالنَّصبِ علَى ذكرِ اللهِ تعالَى، فذكرُ اللهِ لفظٌ عامٌ، والعالمُ والمتعلِّمُ لفظٌ خاصٌ، وكمَا هوَ معلومٌ أنَّ عطفَ الخاصِ علَى العامِ يُعطِي الخاصَّ فضلًا ومزيَّةً علَى غيرهِ، قالَ ابنُ المنيرِ رحمهُ اللهُ تعالَى: عطفُ الخاصِ علَى العامِ يؤذِّنُ بمزيدِ اعتناءٍ بالخاصِ لَا محالةَ، إذَا اقتصرَ علَى بعضِ متناولاتِ العامِ؛ لأنَّ الاقتصارَ علَى تخصيصِ مَا يُفردُ بالذِّكرِ يفيدهُ تمييزًا عنْ غيرهِ منْ بقيَّةِ المتناولاتِ[4].

---

(1) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم للقرطبي أبي العباس: (579/6).

(2) محمد القُهُستاني، شمس الدين ت 95 هـ فقيه حنفي، كان مفتياً ببخارى، الأعلام للزركلي: (11/7).

(3) حاشية ابن عابدين: (416/3).

(4) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف – لابن المنير الإسكندري.

وقالَ السُّيوطِي رحمهُ اللهُ تعالَى: فائدتهُ التَّنبيهُ علَى فضلهِ، حتَّى كأنَّهُ ليسَ منْ جنسِ العامِ، تنزيلًا للتَّغايرِ فِي الوصفِ منزلةَ التَّغايرِ فِي الذَّاتِ"[1].

ومثالهُ فِي قرآنِ قولهُ عزَّ وجلَّ: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}[البقرة: 98]، فقولهُ سبحانهُ: (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) عطفٌ علَى (المَلَائِكةِ) منْ بابَ عطفِ الخاصِ علَى العامِ؛ وذلكَ لأنَّ جبريلَ وميكالَ منْ جملةِ عمومِ الملائكةِ، ولكنْ مَا السَّببُ فِي إفرادِ جبريلَ وميكالَ بالذِّكرِ وهمْ منْ جملةِ والملائكةِ ومنْ جملةِ الرُّسلِ؟

الجَّوابُ هوَ: التَّنبيهُ علَى فضلهمَا وتميُّزهمَا عنْ غيرهمَا.

وكذلكَ الأمرُ فِي عطفِ العالمِ أوِ المتعلِّمِ علَى ذكرِ اللهِ تعالَى ومَا والاهُ، فهوَ منْ بابِ عطفِ الخاصِ علَى العامِ بيانًا لفضلِ العلمِ منْ عمومِ ذكرِ اللهِ وأنَّهُ عمودهُ وذروةُ سنامهِ ورأسُ الأمرِ فِي التقرُّبِ منَ اللهِ تعالَى.

وبهِ قالَ الأشرفِي: المرادُ بمَا يوالِي ذكرَ اللهِ: طاعتهُ واتِّباعُ أمرهِ، وتجنُّبِ نهيهِ؛ لأنَّ ذكرَ اللهِ يقتضِي ذلكَ، وعالمًا أوْ متعلِّمًا أيْ: هيَ ومَا فيهَا مبعِدٌ عنِ اللهِ تعالَى إلَّا العلمَ النافعَ الدَّالِ علَى اللهِ، فهذَا هوَ المقصودُ منهَا، قولهُ: عالمَا أوْ متعلِّمًا بالنَّصبِ عطفًا علَى ذكرِ اللهِ كأنَّهُ قيلَ: الدُّنيَا مذمومةٌ لَا يحمدُ ممَّا فيهَا إلَّا ذكرُ اللهِ، وعالمٌ ومتعلِّمٌ، وكانَ حقَّ الظَّاهرِ أنْ يكتفِي بقولهِ: ومَا والاهُ؛

(1) معترك الاقران في اعجاز القران المؤلف : السيوطي، جلال الدين.

لاحتوائهِ علَى جميعِ الخيراتِ والفاضلاتِ، ومستحسناتِ الشَّرعِ، لكنَّهُ خصَّصَ بعدَ التَّعميمِ دلالةً علَى فضلِ العالمِ والمتعلِّمِ، وتفخيمًا لشأنهمَا صريحًا، وإيذانًا بأنَّ جميعَ النَّاسِ سِواهمَا همجٌ، وتنبيهًا علَى أنَّ المعنَى بالعالمِ والمتعلِّمِ العلماءُ باللهِ، الجامعونَ بينَ العلمِ والعملِ فيخرجُ الجهلاءُ، وعالمٌ لمْ يعملْ بعلمهِ، ومنْ يعملُ عملَ الفضولِ ومَا لَا يتعلَّقُ بالدِّينِ، وفيهِ أنَّ ذكرَ اللهِ أفضلُ الأعمالِ، ورأسُ كلِّ عبادةٍ، والحديثُ منْ كنوزِ الحكمِ وجوامعِ الكلمِ، لدلالتهِ بالمنطوقِ علَى جميعِ الخلالِ الحميدةِ، وبالمفهومِ علَى رذائلهَا القبيحةِ[1].

وأمَّا الحديثُ السَّادسُ: فقدْ قالَ فيهِ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: (ألَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أمَّا أحَدُهُمْ فأوَى إلى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وأمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ منه، وأمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه) وهمُ ثلاثتهمْ حضرُوا مجلسَ علمٍ، لقولِ الرَّاوي: (أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ بيْنَمَا هوَ جَالِسٌ في المَسْجِدِ والنَّاسُ معهُ) والنَّاسُ معهُ يلتمسونَ منهُ العلمَ والفهمَ والإرشادَ، وهؤلاءِ الثَّلاثةُ أحدهمْ رأَى فُرجةً فِي الحلقةِ فسارعَ لعلمِ اللهِ تعالَى وأقبلَ عليهِ بكلِّهِ فأقبلَ اللهُ عليهِ وآواهُ، وأمَّا الثَّانِي جلسَ خلفَ الحلقةِ يستمعُ الحكمةِ ويتعلَّمُ منْ علمِ اللهِ تعالَى ولكنَّهُ استحَيا منَ اللهِ تعالَى فاستحَيا اللهُ تعالَى منهُ، وأمَّا الأخيرُ فلمْ يأبهْ للعلمِ ولمْ يرفعْ بهِ رأسًا وأدبرَ وأعرضَ عنهُ فأعرضَ اللهُ عنهُ والعياذُ باللهِ، ونخرجُ منْ هذَا الحديثِ المباركِ بفوائدَ لَا تُحصَى ولَا تُعدُّ:

---

(1) فيض القدير شرح الجامع الصَّغير للمناوي.

أوَّلهَا: أنَّ منْ أقبلَ علَى اللهِ تعالَى وآوَا إليهِ أقبلَ اللهُ عليهِ وآواهُ لامحالةَ، ويشهدُ لهُ حديثٌ مباركٌ دمعُ لهُ العيونُ يقولُ اللَّهُ تَعالَى علَى لسانِ رسولهِ ﷺ فِي حديثٍ قدسيٍّ مباركٍ: أنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنَا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً[1].

وبمفهومِ الموافقةِ فكذلكَ منْ أرادَ العلمَ لوجهِ اللهِ علَّمهُ اللهُ تعالَى، وبمفهومِ المخالفةِ منْ أعرضَ عنْ علمِ اللهِ أعرضَ اللهُ عنهُ، فالجزاءُ منْ جنسِ العملِ.

والفائدةُ الثَّانيةُ: أنَّ الحياءَ لَا يمنعُ منْ طلبِ العلمِ، بلْ طلبُ العلمِ إذَا كانَ معهُ حياءٌ زادتْ بركتهُ وارتفعتْ درجةُ طالبهِ، والحياءُ منْ بابِ التواضعِ ويشهدُ لهُ قولهُ ﷺ: ... ومَا تواضعَ عبدٌ للهِ إلَّا رفعهُ[2].

والفائدةُ الثَّالثةُ: أنَّ الشرَّ كلَّ الشرِّ فِي الإعراضِ عنْ علمِ اللهِ تعالَى، بلْ علَى العاقلِ أنْ يشغلَ كلَّ يومهِ وليلهِ بطلبِ العلمِ النَّافعِ، فإنْ لمْ يستطعْ فكلَّ وقتَ فراغهِ، فإنْ لمْ يستطعْ فليُخصِّصْ سُويْعاتٍ منْ يومهِ، هذَا حتَّى وإنْ طلبَ العلمَ ولمْ يُتقنهُ لمظنَّة قولهِ ﷺ: منْ طلبَ علمًا فأدرَكَهُ كَتبَ اللَّهُ لَهُ كفلينِ منَ الأجرِ، ومنْ طلبَ علمًا فلمْ يدرِكْهُ كتبَ اللَّهُ لَهُ كفلًا منَ الأجرِ[3]. (الحديث فيه كلام – ينظر الحاشية)

(1) صحيح رواهُ أبو هريرة وأخرجه البخاري في صحيحه 7405 ومسلم 2675 باختلاف يسير.

(2) رواهُ أبو هريرة وأخرجه مالك في الموطأ (1000/2).

(3) رواه واثلة بن الأسقع الليثي أبو فسيلة – الترغيب والترهيب 75/1 – رواته ثقات، وثَّقهم الهيثمي في مجمع الزَّائد – وفيهم كلام. وضعَّفه غيرُ واحدٍ منهم الألباني وابن حجر وقال البوصيري في "إتحاف الخيرة المهرة": إسناده ضعيف لضعف يزيد بن ربيعة الدمشقي (انتهى كلام البوصيري)، وقيلَ أنَّ الأصلَ فيهِ موقوفٌ علَى واثلة بن الأسقع، قال ابن حبان في "المجروحين": فيه مجاشع بن يوسف يقلب الأسامي في الأخبار ويرفع الموقوف من الآثار لا تحل كتابة حديثه رفعه وهو قول واثلة (انتهى كلام ابن حجر). وحتى إن كان الحديث ظعيفًا بضعف يزيد ابن ربيعة، فإنَّه يشهدُ على معناه حديثُ "الماهر بالقرآن" فيرتقِي بذلكَ إلى الحسنِ لغيرهِ، والحديثُ يشهدُ لمعناهُ عدَّةٌ من الأحاديثِ والآياتِ منهَا قولهُ تعالَى: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}[البقرة: 196] قال القرطبي: لا إشكال فيها (أي معنى: الإحصار)، ونحن نبيِّنها غاية البيان فنقول: الإحصار هو المنع من الوجه الذي تقصده بالعوائق جملة، أي بأي عذر كان، كان حصر عدو أو جور سلطان أو مرض أو ما كان. (انتهى كلام القرطبي) فلمَّا تبيَّن أنَّ معنَى الإحصار هو المنع من فعل القربى مع العزم على

فعلهَا، وأنَّ من أحصر فقدْ وقع أجره على الله تعالى لقولهِ تعالَى: {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[النساء: 10] قال ابن كثير: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات في أثناء الطريق، فقد حصل له من الله ثواب من هاجر، (انتهى كلام ابن كثير)، وكذلك من طلبَ علمًا فلم يدركهُ بأيِّ مانعٍ كانَ كبلادةِ الذهنِ وصعوبةِ الفهمِ أو بعد المسافة أو عذر كان فقد وقعَ أجرهُ علَى اللهِ تعالَى، ومن الأحاديث قوله ﷺ: "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى" (رواه البخاري)، ومنهُ قولهُ ﷺ: "إِنَّ أَقْوَامَاً خلْفَنَا بالمدِينةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلاَ وَادِياً إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ" (رواه البخري)، وبهذَا يكون من طلب علمًا فلم يدركه وهو عازمٌ على طلبه، فهوَ كمن أراد الحج وأحصر وكالذي أراد الهجرة فمات في الطريق وكالمجاهد الذي أراد الجهاد ومنعه العذر، فإنما الأعمال بالنِّيات وثبت أجره ونرجو أن يحشر يومَ القيامة في زمرة أهل العلم، وبهذَا يكون الحديث حسنًا لغيرهِ إن شاء الله تعالَى ويجوز الإخبار به، وإنْ كان الحديثُ ضعيفًا بضعف مشاجع بن يوسفَ، فيُحمل الحديث على الوقف لا على الرَّفع، ويصبحُ الحديث حسنا لغيرهِ موقوفًا على واثلةَ، ولكن للعلمِ أنَّ الصَّحابةَ إذَا تحدَّثوا علَى الغيبِ والأجورِ تُحملُ أحاديثهم على الرَّفع، فإن قول الصحابي الذي لا مجال فيه للاجتهاد ولا له علاقة بلغة العرب له حكم الرفع، وذلك مثل الإخبار عن الأمور الماضية وقصص الأنبياء، والملاحم والفتن، وأحوال الآخرة، والإخبار عن ثواب مخصوص أو عقاب مخصوص فكل هذا مما يحكم له بالرفع، لأنه لا مجال فيه للاجتهاد، ومن ذلك: حكمه على فعل من الأفعال بأنه طاعة لله أو لرسوله ﷺ أو معصية (انظر نزهة النَّظر صـ 53 وتدريب الراوي صـ 121) وواثلة رضي اللهُ عنه تحدَّث عن الجزاء والأجر بقوله: "ومنْ طلبَ علمًا فلمْ يدرِكْهُ كتبَ اللَّهُ لَهُ كفلًا منَ الأجرِ" وهذَا ممَّا لَا مجالَ فيهِ للإجتهاد ولا للرأي، ويستحيلُ أنْ يقعَ صحابيٌّ في مثلِ هذَا وأن يقولَ على الله تعالَى بعلمٍ، ونخرج من هذا المبحث، أنَّ ضعف الحديثِ بضعفِ يزيد بن ربيعة فقدْ حسنَ بغيرهِ من شواهد الآيات والأحاديثِ وإنْ كانَ الحديثُ ضعيفًا بضعف مشاجعِ لأنه يرفع الموقوفَ فبمَا سبقَ نرى أنَّ الحديث مرفوعٌ حكمًا بما بينَّا سابقًا، ونخرجُ منْ هذا المبحث بأنَّ الحديثَ مرفوع حكما وهو حسنٌ لغيرهِ ويجوز بهذَا روايتهُ والاستدلالُ بهِ، وما نظن إلَّا ظنًّا وما نحن بمستيقنين، والله أعلمُ.

وقياسًا علَى قولهِ ﷺ: الماهِرُ بالقُرآنِ مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ، والذي يَقرَؤُه وهوَ يَشُقُّ عليهِ لهُ أجْرُهُ مرَّتَينِ[1].

فيجبُ علَى المؤمنِ أنْ يطلبَ العلمَ ويحاولَ الفهمَ، فإنْ لمْ يدركهُ فهمهُ فقدْ برئتْ ذمَّتهُ ونالَ أجرهُ وبركتهُ.

---

(1) روته عائشة أم المؤمنين وأخرجه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند 26028 وقال إسناده صحيح على شرط الشيخين.

تمَّ المبحث والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات